الكاتب: د/رشيد يماني و أ. حفيظة بن داود
قسم التاريخ، جامعة تلمسان – الجزائر

عنوان المقال: **الخدمات الاجتماعية لعلماء الأندلس خلال القرنين السابع والثامن الهجريين /14 و 15 م.**

البريد الالكتروني: rachyd77@yahoo.fr

تاريخ الارسال: 2019/01/07 **تاريخ القبول:** 2019/03/02 **تاريخ النشر:** 2019/04/30

الخدمات الاجتماعية لعلماء الأندلس خلال القرنين السابع والثامن الهجريين/14 و15م

Social services of Andalusian scientists during the two centuries Seventh and eighth Hijri / 14 and 15 AD.

الملخص بالعربية:

تعنى هذه الدراسة بإبراز الدور الاجتماعي والمبادرات الخيرية التي قام بها العلماء والفقهاء في الأندلس ما بين القرنين السابع والثامن الهجريين والتي تباينت وتنوعت ما بينالأعمال الخيرية والدينية والتعليمية مثل التطبيب، وفدية الأسرى، والرفق بالطبقات الكادحة والعطف على الفقراء، ورعاية طلبة العلم، وبناء المرافق العامة ومؤسسات العلم من مدارس وخزائن للكتب، وحتى التعليم والتأليف والقضاء. كما أنهاتسلط الضوء على الواقع الاجتماعي والاقتصادي للأندلس والأندلسيين آنذاك.

كلمات مفتاحية: الأندلس- العلماء- الخدمات الاجتماعية-الأعمال الخيرية.

Abstract :

This study deals with the social role, charitable initiatives , and the volunteering of the Andalusian scientists during the seventh and eighth century AH / 13 and 14 th SC, especially in captivity, care, help for the needy, construction of schools and libraries ... it also highlights the social and economic realities of Al -Andalus in Middle Ages..

Key Words: Andalusia - scholars - charity initiatives - volunteering.

مقدمة:

ضمّ المجتمع الأندلسي من فتح الأندلس من قبل المسلمين إلى أزمنة متقدّمة من الفتح مجموعة متجانسة من الأطياف مختلفة الأجناس والأعراق والأصول، حيث تتحدث المصادر عن وفود مجموعات سكانية كثيرة عقب الفتح أهمّها العرب الذين ينحدرون من دمشق والأردن ومصر وغيرها والذين استوطنوا كلّا من قرطبة، إلبيرة، جيان، باجة، وغرناطة وقد حافظوا على عصبيتهم القبلية لفترة محدودة ثم تلاشت فيما بعد، ويرجع الباحثون ذلك إلى انتشار الأسر التي تنتمي إلى القبيلة الواحدة في أقاليم مختلفة.

يضاف إلى قائمة الوافدين إلى الأندلس فئة البربر، وهي فئة شاركت مشاركة فعالة في فتح الأندلس، حيث تتحدث المصادر عن ما يقارب السبعة آلاف محارب، ولم تقتصر مشاركتهم على الفتح إنما امتدت تأثيراتها عبر الزمن إذ أنهم استقدموا من قبل الحاجب ابن أبي عامر فساهموا في صناعة المجد الذي أسسه، كما قام أهل الأندلس باستدعاء بربر صنهاجة لينجدوهم من سطو الإسبان، ثم تعزز الوجود البربري في الأندلس في فترة الحكم الموحدي خصوصا قبائل مصمودة.

حافظت الأندلس على العناصر السكانية التي كانت فيها قبل الفتح ونقصد بذلك الفئة التي أُطلِق عليها لقب أهل الذمة أو المستعربة إضافة إلى اليهود الذين عاشوا في أحياءهم الخاصة، كما احتوى المجتمع الأندلسي على عناصر أخرى كالمولدين والصقالبة والمسالمة وغيرهم، تمازجت كل هذه العناصر فيما بينها خاصة في القرن الخامس الهجري بحيث يصعب التفريق بينهم مشكلّين ما يعرف بالمجتمع الأندلسي.

كان المجتمع الأندلسي مجتمعا ذو طابع ديني أولى أهمية قصوى لتعاليم الدين الإسلامي ونتيجة لذلك فقد أفرد قيمة مميزة وخاصة للعلماء والفقهاء كونهم حملة هذا الدين وحملة القرآن الكريم، بل إن ولاة الأمور أنفسهم خلفاءًا كانوا أو أمراءًاقد أجلُّوا العلماء واستشاروهم في الأمور الهامة وأخذوا برأيهم عملا بقول النبي صلى الله عليه وسلم: "وَ إِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاء".

تباينت مظاهر التوقير والاحترام التي أبداها الأندلسيون اتجاه علماءهم إذ أنهم قصدوهم لطلب العلم في الحلقات التي كانت تقام بمساجد الأندلس، كما أن بعض طلبة العلم قد فارق بلده متجها إلى مدينة أخرى في سبيل أخذ الإجازة من عالم ذائع الصيت متصل السند، دون أن ننسى أن الأندلسيين قد عرفوا التصوف فسلك عدد لا بأس به منهم طريق الصوفية بما في

ذلك مصاحبة رئيس الطريقة وملازمة الزوايا والرباطات إلى غير ذلك من المظاهر التي لا يمكن حصرها.

ممّا لا شك فيه أنّ العلاقة بين العلماء وأفراد المجتمع الأندلسي قد اتسمت بالتأثير والتأثر ما بين الطرفين، ما جعل العلماء لا يكتفون بدورهم التعليمي التثقيفي بل تعدَّوه إلى أدوار أخرى، وفي هذا الإطار نتساءل حول التجربة الاجتماعية للعلماء الأندلسيين ومدى اسهامهم الاجتماعي محاولين رفع اللبس عن مواقفهم اتجاه المظاهر الاجتماعية من خلال دراستنا لبعض كتب التراجم الأندلسية منها خاصة.

أولا: الخدمات العلمية

- **بناء المساجد:**

لقيت المساجد اهتماما خاصّا ورعاية مميزة من قبل الأندلسيين والعلماء منهم بشكل خاص، وذلك راجع إلى المكانة التي أولاها الدّين الإسلامي لهذا المكان الذي يؤدي فيه المسلمون صلاتهم وعباداتهم ويتلقون فيه العلم، إضافة إلى أنه يشكل ملتقى لهم يتدارسون فيه ما يهمهم ويتشاورون حول مشاكلهم بل ويتقاضون فيه فيما اختلفوا فيه[1].

يقول سبحانه وتعالى في محكم تنزيله: "إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ الله مَنْ آمَنَ بِالله وَاليَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَلَّاةَ وَآتَى الزَكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا الله فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ المُهْتَدِينْ"[2]، وعن عثمان بن عفان قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "مَنْ بَنَى مَسْجِدًا بَنَى الله لَهُ مِثْلَهُ فِي الجَنَّةِ"[3].

ساهم العلماء شأنهم شأن بقية طبقات المجتمع الأندلسي في بناء المساجد وتهيئتها، وفي هذا الصدد رصدت لنا كتب التراجم أسماء علماء لهم باع طويل في الاهتمام بالمساجد والسعي في بناءها وتشييدها حيث يذكر المراكشي أن محمد عبد الرحمن أبو عبد الله بن الكاتب الوادياشي (ت607هـ) قد قام ببناء مسجد دار القضاء بغرناطة من ماله الخاص وقام بإصلاح مساجد أخرى وترميمها[4]، شأنه في ذلك شأن يوسف بن محمد بن يحي البلوي (ت604هـ) والذي بنى 25 مسجدا بمالقة من صميم ماله وساهم في بناءها بعمل يده[5] تواضعا وهو الفقيه الزاهد المشهور بالفضل والدين والعلم[6].

يضاف إلى من سبق أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم الأنصاري الساحلي المالقي الشهير بالمعمّم والمتوفى سنة 754هـ والذي قال عنه صاحب الإحاطة أنّه

اكتسب مالا عريضا لينفقه في سبيل البر، فبنى المدرسة غربي المسجد الأعظم، ووقف عليها الرباع وابتنى غيرها من المساجد...[7].

يذكر ابن الخطيب في ترجمته لمحمد بن محمد بن عبد الرحمن التميمي ابن الحلفاوي نزيل غرناطة أنه كان يملك مسجدا ابتناه من ماله الخاص يقصده أصحاب الفاقة فيكرمهم[8]، كما أن الشيخ الفقيه أبو زكريا يحيى بن أبي بكر ابن همشك قد بنى مسجدا بالجزيرة الخضراء بعدما استوطنها قادما من سبتة سنة 636هـ وعرف بمسجد ابن همشك[9].

- **المكتبات:**

كان ظهور المكتبات بالأندلس وتطورها نتيجة حتمية لحركة الإنتاج الفكري آنذاك[10] شأنها في ذلك شأن بقية الأقطار الإسلامية، ويمكننا القول بأن إنتاج الورق شكَّل طفرة نوعية أعقبها زيادة في عدد المخطوطات التي تنافس كبراء الشخصيات في اقتناءها[11]، بل وخصصت خزائن للكتب كوقف له نصيبه من الموارد المالية في المدارس أو المساجد من قبل أثرياء الناس أو طلاب العلم أو العلماء[12].

لا نستغرب الاهتمام اللافت للنظر بالمكتبات من قبل الأندلسيين خاصة في العهد الموحدي خصوصا إذا علمنا أن الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن نفسه كان قد أمر بجمع الكتب إذ أنه كان مولعا بالعلم والفلسفة، فجمع له عدد لا يستهان به من الكتب يقارب ما اجتمع للخليفة الحكم المستنصر بالله الأموي[13].

رصدت كتب التراجم في هذا الصدد جملة من أخبار العلماء الذين أولوا خزائن الكتب وجمعها أهمية خاصة نذكر منهم: أحمد بن محمد بن محمد بن أبي الخليل مفرج الشهير بابن الرومية (ت637هـ) الذي جمع عديد الكتب في مختلف العلوم حتى أنه "ربما وهب منها لملتمسه الأصل النفيس الذي يعز وجوده احتسابا وإعانة على التعليم"[14]، إضافة إلى محمد بن أحمد بن عيسى بن محمد بن الحجاج اللخمي الإشبيلي (ت654هـ) الذي يقول عنه المراكشي أنه كان "جماعة للكتب"[15]، إضافة إلى أبي القاسم محمد بن أحمد بن جزي الكلبي الذي شغل منصب الخطابة بالمسجد الأعظم بغرناطة والذي بدوره كان جمَّاعة للكتب[16].

تذكر المصادر أن أبا الحسن عيسى بن محمد الشاري نزيل مالقة (ت649هـ)قد امتلك مجموعة نفيسة من الكتب النادرة والدواوين العلمية التي تنعدم عند غيره أوقفها على المدرسة التي بناها بسبتة[17]، كما نقلت لنا المصادر أخبار محمد بن عبد الرحمن اللخمي نزيل غرناطة

(ت708ه) الملّقب بذي الوزارتين والذي يُنقل عنه إفراطه في شراء الكتب واقتناءها حتى ضاقت قصوره عن خزائنها[18].

احترف القاضي عثمان بن يحيى بن محمد بن منظور القيسي الإشبيلي (ت735ه) صناعة التوثيق وبرع فيها إلى جانب اشتغاله بالقضاء والتأليف والتدريس، وقد ساعده على ذلك امتلاكه لكتب أبي علي ابن الحسن والد زوجته حيث ساعدته هذه الكتب على الخوض في مسائل العلم المختلفة[19].

اشتهر أبو عبد الله محمد بن سعيد الأنصاري الشهير بالطراز (ت645ه)ببراعة خطه وحسن وراقته حتى أصبحت مخطوطاته مرجعا نظرا لحسنها وضبطها حيث ترك مؤلفات عدّة بخط يده خصوصا في علم الحديث[20].

- **رعاية طلبة العلم:**

على الرغم من انشغال العلماء في الأندلس بوظائفهم كالقضاء والفتيا والخطابة والإمامة والوعظ لإضافة إلى بعض الوظائف السلطانية في بعض الأحيان إلا أنّ هذا لم يمنعهم من التفرغ للتدريس والتعليم بل إنهم أولوا الطلبة اهتماما خاصا تشجيعا لهم على طلب العلم والإبداع فيه باعتبار أن العلم هو أساس بناء الحضارة الإسلامية[21]، يقول الله سبحانه وتعالى حاثا عباده على طلب العلم: "اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَق"[22]،ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم: "مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ الله لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ"[23].

تنافس العلماء في إكرام الطلبة والاهتمام بهم خاصّة الفقراء منهم، ومن جلة هؤلاء العلماء أبو الحسن يحيى بن محمد بن يحيى الأنصاري السبتي ابن الصائغ (ت600ه) الذي يوصف بأنه كان بارا بطلبة العلم[24].

يذكر النباهي في المرقبة العليا سيرة القاضي العادل أبي الربيع سليمان الكلاعيالبلنسي (ت635ه) الذي احتفى بالطلبة حيث يقول في حقه: "يطعم فقراء الطلبة وينشطهم ويتحمل مؤنتهم"[25] مع ما كان عليه من مسؤوليات ووظائف كثيرة.

كان محمد بن عبد العزيز بن عياش التجيبي (ت618ه) ممّن أخذ على عاتقه مهمّة الاعتناء بطلبة العلم إذ أنه أفاض عليهم من معروفه وسعى في أمورهم مستغلا في ذلك الثروة والجاه الذي كان له عند أمراء الدولة الموحدية[26]

قام الفقيه علي بن محمد الغافقي الشاري الذي تقدم ذكره بإنشاء أول مكتبة (خزانة كتب) في المغرب وقفا لطلبة العلم[27]وذلك بمحاذاة المدرسة التي بناها بسبتة وهذا إن دل على

شيء فإنما يدل على كرم هؤلاء العلماء الذين ساهموا في تذليل الصعاب على المتعلمين والطلبة مما أدى إلى دفع عجلة العلم والحركة الفكرية إلى الأمام.

لم تقتصر العناية بطلبة العلم على تعليمهم والإتفاق عليهم، بل وتعدت ذلك إلى تخصيص أوقاف خاصة بهم داخل الأندلس وخارجها، وخير مثال على ذلك وقف لسان الدين ابن الخطيب نسخة من كتابه الإحاطة بخانقاه سعيد السعداء بمصر خصيصا لطلبة العلم[28].

- **التأليف والتدريس:**

اشتهر علماء الأندلس بتحصيلهم العلمي وذكاءهم وفطنتهم وذاع صيتهم في الآفاق وذلك راجع إلى ولعهم بالعلم والسعي في الإلمام به حيث أنهم بذلوا الغالي والنفيس في سبيل الإجازة العلمية التي تغرّبوا في سبيل الحصول عليها عن أوطانهم وهذا ما أهَّلهم لمنصب الأستاذية والتدريس بمساجد الأندلس ومدارسها في حلقات ضمّت طلبة العلم المنحدرين من كل حدب وصوب.

لا تخلو كتب التراجم من أسماء علماء نذروا أنفسهم للتعليم وتقييد معارفهم حفظا لها من التلف وطلبا لتوريثها للأجيال التي تليهم ومن بينهم: أحمد بن محمد ابن الرومية الذي كان شديد الشغف بالعلم فاشتغل في تقييده وحفظه ليلا ونهارا[29]، يضاف إليه أبو جعفر أحمد بن عبد الحق الجذلي المالقي (ت698هـ) الذي وصفه ابن الخطيب بأنه من صدور أهل العلم والتفنن في الصقع الأندلسي[30].

يذكر المراكشي في كتابه الإعلام سيرة العالم محمد بن أحمد ابن حجاج اللخمي الإشبيلي نزيل مراكش (ت654هـ) الذي عرف عنه ولعه بالعلم فيقول: "نبيل المآخذ مشاركا في فنون من العلم موفقا في تصانيفه"، ومن أهم تآليفه: "رجال الكتب الستّة" يقصد بذلك الإمام البخاري ومسلم، أبي داود، النسائي، الترمذي، وابن ماجة، وكتاب "تكميل الشيوخ النبل"، "المنهج الأقوم في فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم"، ومقالة سمّاها "خبيئة الصدر في تعيين ليلة القدر"، ومقالة أخرى عنونها بـ: "تنبيه الأنام على فضل من شاب شيبة في الإسلام"، وأرجوزة في معجزات سيّد البرية[31].

اشتغل القاضي أبي الربيع الكلاعي بالقضاء ولكن لم يمنعه من التأليف إذ أنّه ترك مؤلفات ذات قيمة علمية أشهرها: "الإكتفاء بما تضمنه من مغازي الرسول صلى الله عليه وسلم ومغازي الثلاثة الخلفاء" ويقع المؤلف في أربع مجلدات، إضافة إلى المسلسلات من الأحاديث والآثار والإنشاءات وكتاب نكتة الأمثال ونفثة السحر الحلال[32].

- **القضاء:**

يشكل القضاء السلطة التنفيذية لأي دولة وقد استمدت الأحكام في مجملها بالأندلس من الشريعة الإسلامية، إذ يقول الله تعالى في محكم تنزيله: "وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُم بِالقِسْطِ إِنَّ الله يُحِبُّ المُقْسِطِين"[33]، ويقول النبي صلى الله عليه وسلم منوّها إلى عظم مسؤولية القاضي: "إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ"[34].

لأن العدل هو أساس دوام الدول وارتقاءها حرص الحكام والخلفاء في الأندلس على اختيار القضاة على أسس ومميزات معينة أهمها التقوى والإلمام بالعلوم الدينية والورع، وقد ذكر النباهي في مقدمة كتابه المرقبة العليا شرف القضاء فقال: "لا شرف في الدنيا بعد الخلافة أشرف من القضاء ولسموّ خطره في الأخطار اشترط العلماء في متوليه من شروط الصحة والكمال ما تقرر في كتبهم"[35]، وذلك لجسارة المهمة وما يترتب عليها على الصعيد الاجتماعي.

أثبت العديد من العلماء الأندلسيين جدارتهم بمنصب القضاء ومن ضمنهم القاضي أبي الربيع الكلاعي الذي ولي القضاء ببلنسية فحمدت سيرته إذ أنه اتصف بالعدل[36]، إضافة إلى عبد الله بن سليمان بن داود بن عبد الرحمن (ت612ه) الذي أوكلت إليه مهمة القضاء بعدّة مدن أندلسية منها إشبيلية وقرطبة ومرسية وميورقة فاشتهر عنه عدله ومخالفته لأهل البدع والأهواء[37].

تولى القاضي محمد بن الحسن بن محمد بن الحسن النباهي (ت بعد 630ه) قضاء مالقة للولاة الظالمين وشدّد على أصحاب الأهواء الفاسدة وحرص على صيانة الأحباس واسترجاع ما ضاع منها[38]، كما عرف عن أحمد بن أبي الحسن محمد بن عمر ابن واجب أبو الخطاب (ت614ه) الذي استقضي بكل من شاطبة وبلنسية العدالة وإحقاق الحق ونصرة المظلوم على الظالم وردع المفسدين فحمدت سيرته إثر ذلك[39]، شأنه في ذلك شأن ابن عمه أحمد بن أبي عبد الله بن واجب (ت637ه) الذي اشتهر بالعدالة أثناء توليه القضاء[40].

تولى محمد بن يحيى بن سعيد الأشعري المالقي الشهير بابن أبي بكر سليل موسى الأشعري (ت741ه) منصب القضاء والخطابة بغرناطة سنة 737ه فرتّب شؤون القضاء إذ أنّه قرّر تجريح الشهود فاستبعد منهم ما يربو على السبعين رجلا[41]، وهذا إنما يدل على ورعه وسعة علمه إذ أنه وظّف علم الرجال خدمة للقضاء من أجل إحلال العدل في المجتمع الأندلسي. وذكر صاحب الذيل والتكملة أن يحيى بن محمد ابن الصائغ نقلا عن أبي عبد الله بن مجبر أنّه كان مصمّما في الحق لا تجري لأحد مظلمة إلا كشفها[42].

انفرد القاضي أبي محمد عبد الله بن يحي الأنصاري (ت745ه) بطريقته المثلى في القضاء حيث أنه اشتغل بالقضاء منذ أن كان عمره عشرين سنة حتى بقية عمره، فاستقضي في مدن الأندلس المختلفة فعَدَلَ إذ عُرِف عنه حسن أخلاقه وتثبُّته في المشكلات وتريُّثُه في حل النزاعات مؤملا حصول الصلح بين المتخاصمين، وعلى الرغم من ورعه كان سريع إنفاذ الحكم إذا تبين له الحق وتأكد منه، ويروى عنه أنّه كان يلازم مكان القضاء إلى ساعات متأخرة من النهار خشية أن يقصده محتاج أو شاك من بعيد فلا يجده[43]، وصفه ابن الخطيب فقال عنه: "لم يختلف عليه إثنان مدّة حياته"[44]ولم يكن ذلك من فراغ فقد برع في علم الفرائض وغيره.

عيّن الخليفة الموحدي المعتمد محمد بن حجاج اللخمي قاضيا خلفا لإسحاق المكادي، وسار الخليفة المرتضى على نهج المعتمد فعيّن ابن حجاج عقبا لأبي عبد الله محمد بن يحي بن الخطيب فاتبّع في كلتا المرّتين سبيل العدالة حيث كان صارما في تنفيذ الأحكام القضائية ومنصفا للمظلومين[45]. وفي ذات الوقت فقد تولّى محمد بن علي بن عبد الله بن الخضر بن هارون اللخمي المالقي (ت636ه) قضاء مالقة نيابة عن القاضي أبي عبد الله بن الحسن فعكف على ردّ الحقوق إلى أهلها[46].

ثانيا: الخدمات الدينية

- **الآداب العامة والأخلاق:**

قام المجتمع الأندلسي على القيم الإسلامية التي تحث على مكارم الأخلاق، يقو النبي صلى الله عليه وسلم: "بُعِثتُ لأُتمِّم حُسْنَ الأَخْلَاق"[47]، ولهذا فقد حرص العلماء على المحافظة على الأخلاق الحميدة ودرأ مساوئها لما في ذلك من نفع يعود على المجتمع.

عُرف العالم الأندلسي أبو زيد عبد الرحمن بن يخلفتن بن أحمد بن تفليت الفازازي (ت627ه) بنهيه عن المنكر ومقارعته لأهل البدع والتحذير منهم[48] حفاظا على أصالة المجتمع الأندلسي، كما عرف عن أبي عامر يحي بن عبد الرحمن بن أحمد بن ربيع الأشعري نصرته للسنة وردعه لأهل الأهواء[49]، شأنه شأن عبد الله بن سليمان بن داود الذي عرف عنه معاداته لأهل البدع والمنكرات[50].

يذكر صاحب نيل الإبتهاجفي ترجمته لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن كعب الثقفي (ت708ه) أنه كان صليبا في الحق شديدا على أهل البدع ملازما السنة[51]، وقد انتهج القاضي محمد بن الحسن النباهي طريق الحق حتى وُصِف بأنه كان مجانبا لأهل البدع والأهواء[52].

اهتم القضاة في الأندلس بالآداب العامة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نظرا لطبيعة وظيفتهم التي تستلزم منهم الحفاظ على أخلاقيات المجتمع وحمايته، وفي هذا الإطار فقد رُوي عن القاضي علي بن عبد الله بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت651هـ) الذي استقضي في مواطن متعددة من المغرب والأندلس على غرار كل من شاطبة وجيان وقرطبة وغيرها فكان نزيها عادلا معروف عنه محاربته لأهل البدع والفساد إذ أنه عزم على تطهير المواضع التي يُوظف فيها من كل أنواع الشرور[53] حماية للأخلاق العامة ومنعا لتفشي الظواهر الخبيثة في المجتمع.

- **الدفاع عن المذهب المالكي:**

دخل المذهب المالكي إلى الأندلس على يد كل من الغازي بن قيس (ت199هـ) ثم زياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون (ت204هـ)، وأصبح مذهبا رسميا في الأندلس في عهد الأمير الحكم الربضي [108هـ-206هـ][54]، واستقر بذلك المذهب المالكي في أوساط العامة والخاصة، مقصيا بذلك كل المذاهب الأخرى التي واجهت مقاومة شديدة من قبل العلماء والفقهاء لتبقى بذلك الأندلس مالكية إلى غاية سقوطها سنة 897هـ.

لم يتوانى علماء الأندلس في الذود عن مذهب الإمام مالك والدفاع عنه إعلاءًا لرايته واعتقادًا به وقد اعتمدوا في ذلك أساليب عديدة كحفظ التراث وكتب الفقه وتدريسه والمناظرة فيه والتأليف واستعماله في القضاء والفتيا[55].

من بين هؤلاء العلماء نذكر عبد الرحمن بن محمد بن يحي الغماري (ت603هـ) الذي تعود أصوله إلى الجزيرة الخضراء والذي يحفظ موطأ مالك استظهره على أبي بكر بن العربي فأجازه[56]، كما عرف عن عبد الله بن حيان الغافقي (ت610هـ) تصميمه وتعصبه للمذهب لا يخرج عنه لغيره، وقد اعتمد على كتاب تهذيب المدونة فعكف على حفظه ودراسته[57].

اشتهر عن الفقيه أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف ابن دهاق الشهير بابن المرأة (ت611هـ) بحلقات العلم التي كان يعقدها في مدن الأندلس المختلفة لتدريس الفقيه بكتاب الموطأ ومناظراته العديدة التي تتمحور حول المذهب المالكي[58].

أما إبراهيم بن محمد بن خلف البلفيقي دفين مراكش (ت616هـ) الذي عرف عنه ورعه وغزارة علمه ومعرفته بعديد العلوم، يصفه المراكشي في الإعلام فيقول عنه: "شديد الإلتزام لمذهب الإمام مالك رضي الله عنه لا يسمح من مخالفته في شيء"[59].

واجه المذهب المالكي حملات عديدة للقضاء عليه خاصة في الفترة الموحدية حيث تم إحراق كتب الفقه المالكي ومصادرتها في الأندلس، فقام إذاك فقهاء المالكية بحفظ هذه الكتب

في صدورهم منعا لزوال المذهب في بلاد الأندلس، ومن بينهم عبد الله بن محمد بن علي التادلي (كان حيا 623ه) الذي أعاد كتابة المدونة من حفظه[60].

اشتغل القاضي أبو عامر يحي بن عبد الرحمن بن أحمد بن ربيع الأشعري (ت639ه) بعلم الكلام حياته كلها بكل من قرطبة وإشبيلية وغرناطة ومالقة[61] فبحث في هذا العلم وناظر غيره فيه لكنه كان مع ذلك ناصرا للسنة رادعا لأهل البدع والأهواء[62] وجعل الفقه أجلّ اهتماماته فدرّس الفقه المالكي وأصوله بمدن الأندلس المختلفة، وفي هذا الشأن ينقل صاحب صلة الصلة عن أبي محمد بن الشيخ قوله: "لم ألقَ أوسع في معارفه ولا أكثر ذكرا للفقه من أبي عامر بن ربيع"[63].

كما انتهج عبد الله بن أبي عامر (ت666ه) طريق والده المتقدم ذكره في التمسك بالمذهب المالكي والعقيدة الأشعرية، يصفه ابن الزبير فيقول عنه: "كان فقيها أصوليا متناصفا سنيا أشعري النسب والمذهب مصمّما على طريقة الأشعرية ملتزما للمذهب المالكي"[64]، وقد تصدّى لمحاربة الفلاسفة والمبتدعة[65].

اعتنى محمد بن أحمد بن محمد بن علي الغساني (ت741ه)[66] بالفقه دراسة وتدريسا حتى عُدّ من حفاظ المذهب حيث أنه جلس لإقراء الفقه المالكي بالمسجد الجامع بمالقة فعظّمه الطلبة وتبركوا به كما أنه ترك مؤلفات منها "كلام على نوازل الفقه"[67].

اشتهر الفقيه محمد بن أحمد بن يوسف بن جزي الكلبي خطيب المسجد الأعظم بمالقة (ت741ه) بتمكنه من الفقه المالكي حفظا وتأليفا وتعليما نظرا لموسوعيته وإلمامه بالعديد من العلوم كالعربية والقراءات والحديث والأدب والفقه والتفسير فأقبل عليه الطلبة نتيجة لذلك فوُصف بأنه "ممتع المحاضرة"[68]، وقد ساهم في إثراء الفقه المالكي بمجموعة متكاملة من المؤلفات نذكر منها: "القوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية"، "التنبيه على مذهب الشافعية والحنفية والحنبلية"، "وسيلة المسلم في تهذيب صحيح مسلم"، الأنوار السَنية في الكلمات السُنية"[69] وغيرها كثير.

- **التصوف:**

اختلف العلماء والباحثون في تحديد مفهوم متفق عليه للتصوف، ونتيجة لذلك تصادفنا مجموعة من التفاسير لهذا المصطلح فعبد الرحمن بن خلدون أنه "علم من العلوم الحادثة في الملّة"[70]، ويعتقد الأب صبري المقدسي أنّ التصوف هو طريقة يتبعها الإنسان للوصول إلى الله والتقرب منه عبر مجموعة من السلوكيات كالزهد والتقشف[71].

انتشر التصوف في المجتمع الأندلسي كنتيجة بديهية لانتشار الإسلام بها، إذ أن الأفراد المشاركين في عملية فتح الأندلس قد حملوا بين جوانحهم بذور التصوف سواء عن وعي بذلك أم لا، وستظهر نتيجة ذلك في القرن الثاني للهجرة الذي شهد ظهور الزهاد والمتصوفة بالأندلس[72].

شهد القرن السابع والثامن للهجرة وإلى غاية القرن التاسع للهجرة ظهور صبغة أندلسية للتصوف الذي اكتسح المجتمع الأندلسي خاصة بعد انتشار ظاهرة المناقب والكرامات لعديد الشخصيات الأندلسية التي مارست التصوف وجنحت للزهد والتقشف في الحياة مما أدى بالبعض إلى التأليف في هذا المجال بذكر تراجم المتصوفة وكراماتهم ناهيك عن ظهور المنشآت العمرانية المرتبطة بالتصوف كالرباطاتوالزوايا[73].

اتصف المتصوفة بالزهد في الحياة والماديات، ولذلك فقد عُرِف عنهم مشاركتهم في أعمال البر خاصة الصدقات، ومن أبرز هؤلاء المتصوفة إبراهيم بن خلف المرداسي (ت616ه) الذي استطاع التأثير في مدينته بلفيق، حيث استغل أملاكه وأراضيه وثروته في أعمال البر فلازمه الفقراء والمساكين والصالحين. وفي هذا الشأن يقول صاحب الإعلام: "يقوم على من قصده ببرّه وإرفاقه ويكفيه المؤنة حتى ينسيه ذكر آفاقه فكان إليه حجُّ كلُّ حاج وزيارة ذوي الآمال والحوائج"[74].

وبالرغم من ميله إلى التصوف واتصافه بالزهد وتفرغه للعلم فإن يوسف بن يحي البلوي (ت604ه) قد ساهم في أعمال البر والخير حتى وإن شق عليه ذلك[75].

ساهم المتصوفة في الأندلس في الإصلاح الاجتماعي والأخلاقي من خلال الوظائف التي يقلّدوها، وخير سبيل على ذلك الصوفي محمد بن أحمد بن قاسم المالقي (ت750ه) الذي شدّد في مواعظه التي كان يلقيها على العامة على أهمية الإيثار ومساعدة الضعفاء والمساكين والتوبة، فكان نتيجة ذلك أن أقلع العديد من الناس عن المنكرات واجتمعت لديه أموال وفيرة بُذِلت في كل أنواع البر والصدقة[76].

كان بعض المتصوفة هم أنفسهم ملجأ الضعفاء على غرار محمد بن أحمد بن يوسف بن عبد الرحمن بن حميد الطنجالي اللوشي (ت724ه) والذي يصفه ابن الخطيب فيقول: "لا يرتفع عن كلف الناس ولا حوايجهم ولا ينقبض عن الشفاعة لهم وإصلاح ذات بينهم"[77].

لم تقتصر تأثيرات المتصوفة على أعمال البر فقط وإنما حاولوا أن ينشؤوا مذهبا في التصوف خاصّا بالأندلس فألفوا في هذا المجال كتبا وأرجوزات وقصائد شعرية في علم

التصوف حسب رؤيتهم، وفي هذا الصدد تذكر المصادر إنجازات عبد الرحمن بن يخلفتن الفزازي، والذي ترك لنا مؤلفات عديدة في التصوف أهمها العشرينيات؛ وهي قصائد في مدح النبي صلى الله عليه وسلم[78]، والتي طبعت بالقاهرة سنة 1320 تحت عنوان "سفينة السعادة لأهل الضعف والنجادة"[79]. إضافة إلى القصائد العشرينيات في النصائح الدينية والحكم الزهدية الذي شرحه محمد الزهدي الغمراوي وطبع بالقاهرة سنة 1334 وديوان الوسائل المتقبلة في مدح النبي والذي انتهى من تأليفه سنة 604هـ[80].

في نفس الإطار عمل علي بن علي بن عتيق الغرناطي (ت744هـ) على تعزيز مكانة التصوف الأندلسي من خلال حُسن أخلاقه ومشاركته في أعمال الخير وقد استغل وظيفته كإمام وخطيب مسجد غرناطة منذ سنة711هـ في نشر الصوفية كما أنه ألّف كتابا أسماه "مطالع أنوار التحقيق والهداية"[81].

- **الوصايا:**

كان الهدف الأول من الوصايا هو نقل الخبرات المُحصَّلة من قبل الموصي إلى عموم الناس، ولذلك فقد استعمل الموصون قدراتهم اللغوية والمعرفية لإنتاج مواعظ وآثار أدبية تحتوي على نصائح في مختلف الميادين الدينية والاجتماعية وحتى السياسية[82].

يُلاحظ من خلال قراءة الوصايا الأندلسية تأثرها الشديد بالقرآن الكريم والسنة النبوية وذلك واضح من خلال الاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية[83].

لعلّ أبرز الوصايا في الأدب الأندلسي وصية موسى بن سعيد لابنه علي (ت685هـ) قبل أن يتجه من الإسكندرية إلى القاهرة، وهي وصية جمعت ما بين الشعر والنثر، وما يلاحظ عليها أنه وصية جامعة لمحاسن الأخلاق والآراءيستفيد منها كل من اطّلع عليها، وممّا قال فيها[84]:

وَاجْعَلْ وَصَاتِي نُصْبَ عَيْنَيْكَ تَبْرَحْ مَدَى الأَيَّامِ مِنْ فِكْرَتِك

وَلَا

خُلَاصَةُ العُمْرِ الَّتِي حَنَّكَت فِي سَاعَةٍ زُفَّت إِلَى فِطْنَتِك

فَلِلْتَجَارِبِ أُمُورٌ إِذَا طَالَعْتَهَا تَشْحَذُ مِنْ غَفْلَتِك

كما أنّه يقول في الوصية ذاتها: "لا تتكل على عقلك فإن النظر فيما تعب فيه الناس طول أعمارهم وابتاعوه غاليا بتجاربهم يربحك ويقع عليك رخيصا، وإن رأيت له مروءة وعقل وتجربة فاستفد منه"[85] إلى غير ذلك من النصائح الثمينة التي تصلح لكل زمان ومكان.

ترك لنا لسان الدين بن الخطيب إحدى أعظم الوصايا لأبنائه يحثّهم فيها على خيري الدنيا والآخرة، وقد وصفها المقري فقال أنه مما يرجع بالنفع على الخاصة وجمهور الرعايا[86] وذلك لكون الوصية قد تطرقت لمواضيع شتى كالصلاة والطهاة والصوم والجهاد وكل ما من شأنه أن يرتقي بالنفس البشرية.

من جملة وصايا لسان الدين بن الخطيب لأبنائه قوله: "تمسكوا بكتاب الله تعالى حفظا وتلاوة واجعلوا حمله على حمل التكليفعلاوة وتفكروا آياته ومعانيه وامتثلوا أوامره ونواهيه"[87]، كما يقول: "أمروا بالمعروف أمرا رفيقا وانهوا عن المنكر نهيا حريّا بالاعتدال" ثم يقول: "أطيعوا ولاة الله تعالى من أموركم أمرا ولا تقربوا من الفتنة جمرا"[88] إلى غير ذلك من درر الحكم التي حُفظت عن ابن الخطيب.

أوصى محمد بن أحمد بن حميد الهاشمي الطنجالي (ت724هـ) وهو على فراش الموت ابنه أبا بكر فقال له:"يا ولدي اتق الله حيث كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن"[89].

أبدع العلماء الأندلسيون في قرض الشعر فألّفوا في ذلك دواوين لا زالت شاهدة على كفاءتهم، وقد استغل بعضهم موهبتهم الشعرية في صياغة وصايا يستفيد منها من خلفهم، ومن بين هؤلاء الشعراء أبو عثمان سعيد بن أحمد بن ليون الذي يقول في إحدى قصائده التي يحضّ فيها على طلب العلم[90]:

الـعِلْـمُ نـُورٌ وَهُـدًى ... فَـكُنْ بِجِدٍّ طَالِبَه

وَاحْرِصْ عَلَيْهِ وَاعْتَمِدْ ... فِيهِ الأُمُورُالوَاجِبَه

مَنْ لَازَمَ العِلْمَ عَلَا ... عَلَى الأَنَامِ قَاطِبَه

تنوعت الوصايا في الأندلس ما بين وصايا نثرية كالتي سبق الإشارة وأخرى شعرية كتبت على شكل قصائد حفظت في دواوين كبار الشعراء على غرار الوصايا التي خلّدها ابن الآبار (ت658هـ) في قصائده حيث يقول في إحداها[91]:

إِيَّاكَ وَالأَخْـذَفِيمَـا أَنْـتَ تَـارِكِـه ... مِنْ تُـرَّهَاتٍ تَجُـرُّ الشِينَ وَالطَّبَعَـا

دِنْ بِاطِّرَاحِكَ دُنْـيًا طَالَمَا غَدَرَتْ ... وَزُخْرُفِهَا مِنْ حَلَاهَا شَدَّ مَا خَدَعَا

وَادْأَبْ عَلَى البِرِّ وَالتَقْوَى فَبَابُهُمَا ... إِلَى السَعَادَةِ مَفْتُوحٌ لِمَنْ قَـرَعَـا

ثالثا: الأعمال المجتمعية

- **الأعمال الخيرية:**

وتشمل في طياتها كل أعمال البر التي تسابق العلماء في تأديتها كإطعام فقراء الناس والإحسان إلى اليتامى والتصدق عليهم، كان للعلماء دور عظيم في حث الناس على دفع الصدقات خاصة في الظروف الصعبة لسدّ حاجة الفقراء[92]، بل إنهم هم أنفسهم كانوا ملجأ الفقراء والمساكين على غرار عمر بن علي بن عبد العزيز الهاشمي القرشي (ت744ه) والذي كان كلفا بأفعال الخير مبادرا لقضاء الحوائج[93].

ينقل لنا صاحب نيل الإبتهاج نقلا عن الشيخ أحمد زروق أنّ الناس قد طلبوا من علي بن عبد الرحمن الأنفاسي(ت860ه) أن يستسقي لهم فتصدق بما كان يملك من الزرع وكان كثيرا[94]، كما عرف محمد بن يحي بن إبراهيم الغساني البرجي الغرناطي (786ه) بكرم طبعه وبذله للمعروف[95].

عيّن العالم محمد بن علي بن سعد الأنصاري المعروف بالحفار الغرناطي (ت811ه) مسؤولا عن الصدقة من قبل السلطان فأدّاها إلى مستحقيها من المساكين والضعفاء فحُمدت إثر ذلك سيرته[96]. واشتهر عن الشاعر أبي عبد الله محمد بن يوسف بن يوسف الصريحي الشهير بابن زمرك(الذي كان حيا سنة 792ه) الجود والكرم بما يملك مع إخوانه وأقربائه وهو القائل[97]:

أَيَا لَائِمِي فِي الجُودِ شِيمَتِي ... جُبِلْتُ عَلَى إِيثَارِهَا يَوْمَ مَوْلِدِي

ذَرِينِي فَلَو أَنِّي أَخْلُدُ بِالغِنَى ... لَكُنْتُ ضَنِيًّا بِالَّذِي مَلَكَتْ يَدِي

بادر أحمد بن محمد بن عمر اللخمي أبو جعفر المالقي إلى قضاء حوائج الناس[98]، شأنه في ذلك شأن ابن أبي زمنين أحمد بن محمد بن كثير المري الذي واظب على أعمال البر والخير[99]، إضافة إلى أحمد بن حسان بن عبد الله الكلبي (ت626ه) وهو سليل حسام بن ضرار الكلبي الذي عرف هو الآخر بجوده وسعة معروفه[100]كسليمان بن يوسف بن عوانة الأنصاري الذي كان عاكفا على أعمال البر[101].

يروى أن أبا الحسن سهل بن محمد بن محمد بن مالك الأزدي الغرناطي (ت639ه) أنه كان واسع المعروف بلغ به جوده وكرمه أن يتصدق قبيل وفاته بجزء كبير من ماله ورباعه[102]، كما يروى عن علي بن لب بن شلبون البلنسي أنه كان جوادا محسنا مطعاما لقاصديه[103]، إضافة إلى محمد بن أيوب بن داود الغافقي (ت608ه) الذي اشتهر بالإحسان للفقراء مؤثرا إياهم بما يملك[104].

تروي لنا كتب التراجم من أخبار العلماء من أصحاب البر الذين لا يمكن عدهم ولا حصر أعمالهم الخيرية، ويبدو أن معظمهم قد طمعوا في المثوبة من الله وستر حاجة إخوانهم من الفقراء فعمدوا إلى صدقة السر فلم يصلنا شيء عن ماهية صدقاتهم[105]، ولكنهم اتصفوا من قبل معاصريهم بالجود والكرم، ومن هؤلاء نذكر محمد بن عبد الله الرعيني المالقي أبو عبد الله (ت665ه) الذي لم يدخر شيئا لغده قط[106]، ومحمد بن عبد الله بن عمر الأنصاري القرطبي (ت639ه) الذي استغل جاهه في قضاء حوائج من قصده[107]، شأنه في ذلك شأن محمد بن عبد الرحمن القضاعي الإشبيلي أبو عبد الله(ت726ه) الذي نفع بجاهه قصّاده وأحسن إليهم مؤثرا إياهم بما يملك[108]، إضافة إلى محمد بن عبد الملك الإشبيلي (ت618ه) الذي كان مبسوط اليد بالصدقات[109].

لم تقتصر أعمال البر على من سبق ذكرهم ولكنّها كانت عادة متأصلة لدى العلماء في الأندلس، فهذا عبد الله بن موسى بن عبد الرحمن الصنهاجي الغرناطي الذي كان يحبّذ الصدقة ويرى أنها أفضل الأعمال وطالما تصدّق بكل ما يملك[110]، وعبد الله بن عبيد الله الذي أنعم عليه الخليفة المنصور بمال ومسكن وكسوة فاخرة فكان من أخير الناس لأهله، فأهداها كلها إلى أصهاره وأقربائه من الضعفاء والمساكين[111]، وأحمد بن محمد بن زيد الغافقي الذي يقول عنه صاحب الإحاطة: "شمّر وفوت الأصول للحضرة في باب الصدقة"[112].

من أبرز من عُرفوا بالصدقة والكرم محمد بن الحسن النباهي الذي كان يتصدق كل يوم جمعة بخمسمائة دينار[113]، إضافة إلى علي بن إبراهيم بن علي التجيبي الشهير بابن الصحاف الغرناطي (ت604ه) والذي كان ثريا فساهم في كل أعمال البر خاصة تربية الأيتام وتجهيزهم[114]، كما اشتهر علي بن هذيل بصدقاته التي لا تعد على الأرامل واليتامى بما لديه من مال أو أكل أو غيره حتى أن زوجته عاتبته في ذلك واتهمته بأنه يريد الفقر لأولاده[115].

كانت ليحيى بن عبد الرحمن الأصفهاني أموال دفعها لأحد ثقته ليتاجر فيها فلما مرض مرض موته أوصى بثلث أرباح تجارته لفقراء غرناطة وقد أوكل مهمة تنفيذ وصيته إلى سعيد بن الحاج بن سعيد كما أنه كان قد بعث بمال إلى أبو جعفر الجيار ليشتري بها سلعا حكرة وطلب منه أن يبيعها بعد وفاته ويتصدق بها على أهل الخصاصة بمالقة فنفذت وصيته[116].

كان علي بن خلف الأنصاري قد ورث عن أبيه نحو إثناعشر ألف(12000) دينار فتصدق بها كلها[117]، ووصف ابن الخطيب إبراهيم بن خلف بن عبد الله بأنّه كان رؤوفا شديد الحنان

على الضعفاء والمساكين واليتامى[118]، كما ذكر صاحب الذيل أن علي بن محمد بن حسن الأنصاري الإشبيلي قد آثر الفقراء بماله مطعما لهم كثير الصدقة عليهم[119].

تذكر المصادر عن إبراهيم بن محمد بن أبي العاص التنوخي إمام وخطيب جامع غرناطة أنه عوّد الفقراء والمساكين على طلاقة وجهه حيث أنه كان يفرق عليهم قوته رأفة بهم حتى تعودوا منه ذلك فأصبحوا يتزاحمون على بابه وربما استعجلوه في طلب الخبز فيفرقه عليهم عجينا قبل نضجه[120].

ساهم محمد بن إبراهيم بن يوسف الأنصاري ابن السراج طبيب الدار السلطانية في تطبيب الفقراء والمساكين إحسانا إليهم حيث كان يعالجهم ويزورهم ويؤثرهم على غيرهم من الأغنياء[121].

- **فدية الأسرى:**

نظرا للاتصال المباشر للأندلس مع الإسبان وكثرة الحروب بين الطرفين خاصة مع تغلب العدّو نتيجة الضعف الذي تخلل الدولة الإسلامية وإهمال العدة الحربية كالحصون التي أصبحت لا تفي بالغرض؛ فقد وقع العديد من المسلمين في الأسر وكان من الواجب فديتهم وإنقاذهم من بطش الإسبان، وهذا وإن كان واجب الدولة فهو كذلك واجب ديني لا مناص من تنفيذه حيث يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "فُكُّوا العَانِي- يَعْنِي الأَسِير"[122].

عُرف الإمام محمد بن أحمد بن الحجام اللخمي التلمساني (ت614هـ) نزيل إشبيلية بحسن الوعظ وتأثيره في قلوب الناس، ومما يروى عنه أنه حث الناس في إحدى خطبه بجامع إشبيلية على فداء الأسرى فتأثر الناس بموعظته فبذلوا كل ما معهم، وخلع بعضهم ثيابه فتراكمت الصدقات أمام منبره حتى كادت تحجبه عن الأنظار دون ما وُعد به فلمّا بيعت كان ثمنها يعادل مالا جسيما[123].

كما أن عبد الرحمن بن الحكيم (ت673هـ) قد قام بافتداء أسرى بعدد أعضاء جسمه، حتى أن أبا الربيع بن حبيب قد قال فيه[124]:

وَوَصَّيْتَ فِي الأَسْرَى بِخَيْرِ وَصِيَّةٍ فَدَى كُلُّ عُضْوٍ مِنْكَ نَاجٍ مِنَ الأَسْرِ

ويقول أديب آخر في شأنه[125]:

أَعْتَقَ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْكَ رَقَبَه
وَاعْتَدَّ ذَلِكَ ذُخْرًا لِيَوْمِ العَقَبَه
لَا أَجِدُ مَنْقَبَةً مِثْلَ هَذِهِ المَنْقَبَه.

- **التصدي للأزمات والكوارث:**

عانت الأندلس مثل غيرها من البلدان الإسلامية في العصور الوسطى من ويلات المجاعات التي ترجع في أغلبها عن الجفاف والقحط أصابت البلاد الأندلسية أو تعود إلى أسباب سياسية كحصار الإسبان لبعض المدن الأندلسية المتاخمة للنصارى، وأبرز هذه الأزمات الإقتصادية الغلاء الذي أصاب مالقة سنة 608هـ والمجاعة التي أصابت غرناطة سنتي 617هـ و618هـ وغيرها.

ساهم علماء غرناطة في رفع الضرر الناجم عن الغلاء الذي عصف بغرناطة وأبرزهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن صالح القيسي (ت618هـ) الذي عُرف بكثرة الصدقة حيث تروي المصادر أنه باع كل ممتلكاته حتى أواني الماء فتصدق بمبلغ يقدر بسبعمائة دينار صرفه على المحتاجين بنفسه[126].

كما أن عبد العظيم بن عبد الله البلوي المعروف بابن الشيخ (ت666هـ) وهو فقيه من جلّة علماء الأندلس قد قام ببيع كتبه وبعضا من ممتلكاته وتصدق بها كلها دون أن يترك لنفسه شيئا، وقد وصفه ابن الزبير بأنه كان مشاركا في حوائج المسلمين[127] في إشارة منه إلى ما فعله أثناء المجاعة التي اجتاحت غرناطة سنة 663هـ.

من جملة العلماء الذين سارعوا إلى رفع الغبن عن المحتاجين في أوقات الشدة والمحن نذكر أبو القاسم عبد الرحمن ابن الحكيم(ت673هـ) وهو من أعلام العلم والأدب، يصفه ابن الخطيب فيقول: "أفرط في باب الصدقة بما انقطع عنه أهل الإثراء من المتصدقين"[128]، ولعل ذلك راجع إلى كونه قد تصدق بمال قبل وفاته على ضعفاء بلده فعمتهم صدقاته الكثيرة كما أنه عمل على سقاية الناس وأوصى بأن يصرف باقي ماله على الفقراء بعد وفاته[129].

صادف القحط الذي أصاب غرناطة سنة 747هـ تولي أبي البركات البلفيقي قضاء ألمِرية في 23 من شعبان 747هـ فما كان منه إلا أن استسقى للقوم فأمطرت السماء يومها[130].

- **بناء المرافق العامة:**

تنحصر أنواع المنشآت التي شغلت اهتمام العلماء الأندلسين غالبا على المنشآت التي تعود بالنفع عليهم وعلى المجتمع، ولذلك لا نجد- فيما استطعنا الوصول إليه من مراجع- أية ولع لهم بالقصور والمباني الفخمة، وبالمقابل نجد أنهم سارعوا إلى المشاركة في الانجازات العمرانية والتي كانت في مجملها ضمن الوقف.

تذكر المصادر أن يوسف بن محمد بن يحي البلوي حفر لوحده آبارا تزيد عن الخمسين بئرا بمالقة، وكان كلما حفر بئرا جديدة صلى فيها نافلة لله وشكرا له[131].

كما يروى أن محمد بن عبد الرحمن بن الكاتب أخرج من ماله أربعة آلاف دينار لإتمام قنطرة وادي شنيل، وقد أكّد قبل وفاته على تنفيذ وصيته هاته[132].

يذكر ابن الخطيب في إحاطته حكم بن أحمد بن رجا الأنصاري المكنى بأبي العاص والذي يعد من قرّاء غرناطة وأهل الفضل فيها، وقد نسب إليه مسجد أبي العاص وحمام أبي العاص إضافة إلى درب معروف باسمه بغرناطة[133]، ولا شك أنه أنشأ كل هاته المنشآت بماله الخاص فنسبت إثر ذلك إليه.

خاتمة:

أسهم العلماء الأندلسيون في القضايا الاجتماعية نظرا لإدراكهم حجم المسؤولية الملقاة على عاتقهم واحتكاما لتعاليم الدين الذي يحملونه والذي يحث على المبادئ السامية التي تخدم المجتمع؛ وقد ترك العلماء والفقهاء الأندلسيون بصماتهم في جميع المجالات وعلى كافة الأصعدة، وهذا ما يمكن ملاحظته عند تصفح كتب التراجم والسير التي تسلّط الضوء على حياتهم وإنجازاتهم، فقد شغل الوقف حيّزا كبيرا من اهتماماتهم بل إنّه أصبح أحيانا أولى أولوياتهم.

لَمَّا كان العلم ركيزة الحضارة الإسلامية وسرّ استمراريتها فقد حرص العلماء على الاهتمام بهذا المجال، فبنوا المساجد والمدارس التي اعتبرت آنذاك المقصد الأول لطلبة العلم، ولم يكتفوا بذلك بل عملوا على إضافة مكتبات أو خزائن للكتب ووقفها على طلاب العلم كما فعل ابن الرومية الذي آثر طلابه بعزيز الكتب ونادرها.

عمل العلماء في الأندلس على الاهتمام بطلبة العلم خاصة منهم الفقراء والمعوزين الذين قد تمنعهم ظروفهم المالية من مواصلة تعليمهم ولهذا فقد نذر بعض العلماء أنفسهم خدمة لهذا الصنف من الطلبة بالإحسان إليهم مثلما فعل القاضي أبي الربيع الكلاعي الذي كان بارا بطلبة العلم يطعمهم ويشجعهم.

على غرار جميع العلماء المسلمين حافظ أعلام الأندلس على الموروث العلمي والثقافي الخاص بهم وذلك عن طريق تدريسه أو التأليف فيه، ونتيجة لذلك اتصل السند العلمي بأعلام آخرين من داخل الأندلس وحتى من خارجها، وأصبحت المكتبة الأندلسية زاخرة بالمؤلفات العلمية التي ما زالت شاهدة على أصالة العالِم الأندلسي.

لطالما كان القضاء الأداة الصارمة لحفظ المجتمع ممّا يفسده ووفقا لذلك حرص القضاة الأندلسيون على إحقاق الحق وإبطال الباطل ونصرة المظلوم وحفظ الأخلاق والآداب العامة ومقارعة البدع والمنكرات.

انتشر المذهب المالكي في الأندلس ليغمر جميع أرجاءها مقصيا بذلك كل المذاهب الأخرى، وللحفاظ عليه اعتمد فقهاء المالكية في الأندلس طرقا عدة من خلال حفظ المتون والمسائل الفقهية كالمدونة وتهذيب البرادعي عليها وحفظ الموطأ وشروحه، كما قاموا بتدريس المذهب للطلاب عن طريق أمهات كتب الفقه بما في ذلك المدونة، الرسالة، التلقين والتهذيب، ناهيك عن استعمالهم أسلوب المناظرة في إثبات صواب مذهبهم، والتفرغ للتأليف في الفقه وأصوله حفظا له من التلف والزوال، كما أن فقهاء المالكية الذي أسندت لهم وظائف سيادية في الدولة قد استغلوا وظائفهم تلك في تكريس المذهب عن طريق الفتيا والقضاء طبقا لتعاليم المذهب المالكي.

اكتسح التصوفُ الأندلسَ حتى أصبح لها صبغة صوفية خاصة تجلت في ظهور الطرقية التي صاحبها ظاهرة المناقب والكرامات التي أُلِّف فيها كتب تروي سير المتصوفة وأعمالهم ومنجزاتهم.

عرف المجتمع الأندلسي ظاهرة الوصايا كما عرفها غيره من المجتمعات الإسلامية، وتهدف الوصايا عموما إلى نقل النصائح والعبر والتجارب الحياتية إلى الأبناء بصفة خاصة أو إلى عموم المجتمع، وتنوعت مواضيع الوصايا فجمعت بين النصائح الدينية والأخلاقية والسياسية، ومن أشهر الوصايا في الأندلس وصية موسى ابن سعيد لابنه علي ووصية لسان الدين بن الخطيب لأبنائه وكلاهما وصيتان جامعتان.

عمل العلماء الأندلسيون على الاحتكاك بالمجتمع بجميع أطيافه، وحظي فقراء الأندلس ومعوزيها على اهتمام خاص كونهم الفئة الأكثر احتياجا للمساعدة، ولم يبخل العلماء كلٌّ حسب موضعه وظروفه المادية في مد يد المساعدة فمنهم من اشتهر بالصدقة كأحمد بن زيد الغافقي، ومنهم من شمِلَ الأرامل واليتامى بعنايته كابن الصحاف الغرناطي، ومنهم من عمل على تخفيف وطأة الأزمات والمجاعات التي عرفتها الأندلس .

كان للجوار الذي جمع الأندلس مع الممالك النصرانية بالغ الأثر في نشوب الحروب والمعارك التي راح ضحيتها أسرى مسلمين لم يكن هنالك بد من تحريرهم وإرجاعهم إلى أوطانهم، وفي هذا الشأن فقد سعى العلماء إلى المساهمة في هذا العمل الخيري سواء بتحريض الناس على التبرع

كما فعل محمد بن الحجام اللخمي خطيب جامع إشبيلية أو بالمساهمة الفعلية في فداء الأسرى مثلما فعل عبد الرحمن بن الحكيم الذي أنقذ عددا كبيرا من الأسرى.

الهوامش:

[1] - خالد محمود عبد الله، دور العلماء في الحياة الاجتماعية في عهد الموحدين ، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، ع10، مج3، ص227.

[2] - سورة التوبة، الآية [18]، رواية ورش .

[3] - محمد البخاري، صحيح البخاري، ط1، دار ابن كثير، بيروت، 2002، ص121.

[4] - ابن عبد الملك الأنصاري، الذيل والتكملة، س6، تح:إحسان عباس، ط1، دار الثقافة، بيروت، 1973، 369.

[5] - ابن الزبير الغرناطي، صلة الصلة، تح: شريف أبو العلا العدوي، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2008، ص435.

[6] - ابن عساكر، أعلام مالقة، تح: عبد الله المرابط الترغي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999، ص373.

[7] - لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، مج3، تح: محمد عبد الله عنان، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1973، ص191.

[8] - ابن الخطيب، المصدر نفسه ، ص272 .

[9] - ابن سعيد الغرناطي ، اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى، اختصره محمد بن خليل، تح: إبراهيم الأبياري، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1959، ص98 .

[10] - حامد الشافعي دياب، الكتب والمكتبات في الأندلس، ط1، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1997، ص93.

[11] - ألكسندر ستيبتشفيتش، تاريخ الكتاب، ج1، ت: محمد الأرناؤوط، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1991، ص237.

[12] - حامد دياب، المرجع السابق، ص79.

[13] - عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تح: صلاح الدين الهواري، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، 2006، ص175. حامد دياب، المرجع السابق، ص79 .

[14] - ابن الخطيب، المصدر السابق، مج1، ص207 .

[15] - المراكشي العباس بن إبراهيم، الإعلام بمن حلّ بمراكش وأغمات من الأعلام، ج6، تح: عبد الوهاب بن منصو، ط2، المطبعة الملكية، الرباط، 1993، ص18 .

[16] - ابن الخطيب، المصدر السابق، مج3، ص20 .

[17] - ابن الزبير، المصدر السابق، ص316.

[18] - ابن الخطيب، المصدر السابق، مج2، ص ص444-446.

[19] - نفسه، مج4، ص86-87.

[20]- ابن فرحون المالكي، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ج2، تح: محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة، ص277-278.

[21] - خالد محمود عبد الله، أحمد صالح محمد، دور العلماء في الحياة الاجتماعية في عهد الموحدين، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، مج3، ع10، سنة 2011، ص235 .

[22] - سورة العلق، الآية[1]، رواية ورش .

[23] - النووي يحي بن شرف الدين، رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، تح: خليل الخطيب، دار الكتاب الحديث، الجزائر، ص327.

[24] - ابن عبد الملك، المصدر السابق، س8، ص414.

[25] - النباهي أبو الحسن ، تاريخ قضاة الأندلس، تح: لجنة إحياء التراث العربي، ط5، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1983، ص119.

[26] - ابن عبد الملك، المصدر السابق، س6، ص384-385 .

[27] - محمد بن القاسم السبتي، اختصار الأخبار عمّا كان بثغر سبتة من سني الآثار، تح: عبد الوهاب بن منصور، ط2، الرباط، 1983، ص29.

[28] - المقري التلمساني أحمد بن ممد ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب ، مج7، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968، ص105 .

[29] - ابن الخطيب، المصدر السابق، مج1، ص208.

[30] - نفسه، مج1، ص180 .

[31] - المراكشي، المصدر السابق، ص18-19

[32] - النباهي، المصدر السابق، ص119.

[33]- سورة المائدة، الآية[42]، رواية ورش.

[34] - مسلم بن الحجاج القشيري، صحيح مسلم، تح: أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي، ط1، دار طيبة، الرياض، 2006، ص822.

[35] - النباهي، المصدر السابق، ص2 .

[36] - نفسه، ص119 .

[37] - ابن الزبير، المصدر السابق، ص96-97 .

[38] - النباهي، المصدر السابق، ص112-113.

[39] - ابن فرحون، المصدر السابق، ج1، ص227 .

[40] - نفسه، ج1، ص228.

[41] - أحمد بابا التمبكتي، نيل الإبتهاج بتطريز الديباج، تق: عبد الحميد عبد الله الهرامة، ط2، دار الكتاب، طرابلس، 2000، ص396-397.

[42] - ابن عبد الملك، المصدر السابق، س8، ص415.

[43] - النباهي، المصدر السابق، ص152.

[44] - ابن الخطيب، المصدر السابق، مج3، ص413.

[45] - المراكشي، المصدر السابق، ج6، ص19.

[46] - ابن عبد الملك، المصدر السابق، س8، ص450.

[47] - مالك بن أنس، الموطأ، ط1، منشورات الآفاق الجديدة، المغرب، 1992، ص789.

[48] - ابن الخطيب، المصدر السابق، مج3، ص517.

[49] - نفسه، مج4، ص373-374.

[50] - ابن الزبير،المصدر السابق، ص97.

[51] - ابن الخطيب، المصدر السابق، مج1، ص189.

[52] - النباهي، المصدر السابق، ص91.

[53] - ابن عبد الملك، المصدر السابق، س8، ص156.

[54] - صفي الدين محي الدين، دخول المذهب المالكي إلى الأندلس وعوامل انتشاره فيها، مجلة كان التاريخية، ع13، سنة2011، ص92.

[55] - يونس بحري، الفقه المالكي في عصر الموحدين [515-668هـ/1116-1269م]، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر1، 2012، ص ص167-172.

[56] - ابن الآبار البلنسي، التكملة لكتاب الصلة، ج3، تح: عبد السلام الهراش، دار الفكر، بيروت، 1995، ص43.

[57] - ابن الزبير، المصدر السابق، ص91.

[58] - ابن عبد الملك، المصدر السابق، س1، ص140.

[59] - المراكشي، المصدر السابق، ج1، ص155.

[60] - أحمد بابا التنبكتي، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس الديباج، ج1، تح: محمد مطيع، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ص236.

[61] - ابن الزبير، المصدر السابق، ص415 .

[62] - ابن الخطيب، المصدر السابق، مج4، ص374.

[63] - ابن الزبير، المصدر السابق، ص415.

[64] - نفسه، ص107 .

[65] - جلال الدين السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ج2، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط2، دار الفكر، 1979، ص66 .

[66] - ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، مج3، دار الجيل، بيروت، 1993، ص358.

[67] - ابن الخطيب، المصدر السابق، مج3، ص64 .

[68] - ابن الخطيب، المصدر السابق، مج3، ص20-21.

[69] - ابن فرحون، المصدر السابق، ج2، 275. - عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، فهرس الفهارس، ج1، تح: إحسان عباس، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982، ص306.

[70] - عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، تح: أحمد جاد، ط1، دار الغرب الجديد، القاهرة، 2007، ص449.

[71] - صبري المقدسي، الموجز في المذاهب والأديان، ج1، ط1، مكتبة المديرية العامة للثقافة والفنون، أربيل، 2007، ص340.

[72] - عبد السلام غرميني، المدارس الصوفية المغربية والأندلسية في القرن 6هـ، ط1، دار الرشاد، الدار البيضاء، 2000، ص25-26.

[73] - رشيد يماني، البيوتات العلمية في الأندلس النصرية خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين، رسالة دكتوراه، قسم التاريخ، جامعة تلمسان، 2015، ص308-309 .

[74] - المراكشي، المصدر السابق، ج1، ص155.

[75] - ابن الزبير، المصدر السابق، ص453.

[76] - ابن الخطيب، المصدر السابق، مج3، ص241

[77] - نفسه، مج3، ص246.

[78] - التنبكتي، المصدر السابق، ص240.

[79] - كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج5، تر: عبد الحليم النجار، ط5، دار المعارف، القاهرة، ص131.

[80] - نفسه، ص132.

[81] - ابن الخطيب، المصدر السابق، مج4، ص198-199.

[82] - حذيفة عبد الله عزام، الوصايا في الأدب الأندلسي، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، 2007، ص30.

[83] - نفسه، ص63.

[84] - ابن فرحون، المصدر السابق، ج2، ص353.

[85] - نفسه، ص356.

[86] - المقري، المصدر السابق، مج7، ص392.

[87] - نفسه، مج7، ص397.

[88] - نفسه، مج7، ص401.

[89] - ابن الخطيب، المصدر السابق، مج3، ص248.

[90] - ابن الخطيب لسان الدين ، الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1983، ص87.

[91] - ابن الآبار البلنسي، ديوان ابن الآبار، تح: عبد السلام الهراس، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1999، ص377.

[92] - مانويلا مارين، ممارسات المسلمين الدينية في الأندلس بين القرنين 2 و4هـ/ 8 و10م، الحضار العربية الإسلامية في الأندلس، ج2، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1998، ص175 .

[93] - التنبكتي، المصدر السابق، ص 301، 302 .

[94] - نفسه، ص336.

[95] - نفسه، ص 449، 450 .

[96] - نفسه، ص477 .

[97] - نفسه، ص ص478، 480 .

[98] - ابن عبد الملك، المصدر السابق، س1، ص476 .

[99] - نفسه، س1، ص448.

[100] - نفسه، س1، ص86 .

[101] - نفسه، س4، ص98 .

[102] - نفسه، س4، ص ص101، 103.

[103] - نفسه، س5، ص274 .

[104] - نفسه، س5، ص136-137 .

[105] - مثنى فليفل سلمان الفضلي، همسة صالح عبد القادر سعدون، الخدمات العامة في مملكة غرناطة، مجلة الأستاذ، جامعة بغداد، ع213، سنة2015، ص175 .

[106] - ابن عبد الملك، المصدر السابق، س6، ص285، 286 .

[107] - نفسه، س6، ص293 .

[108] - نفسه، س6، ص358، 359 .

[109] - نفسه، س6، ص406 .

[110] - ابن الزبير، المصدر السابق، ص85 .

[111] - نفسه، ص88.

[112] - ابن الخطيب، الإحاطة، مج1، ص168، 169 .

[113] - ابن الزبير، المصدر السابق، ص113 .

[114] - نفسه، ص285.

[115] - ابن عبد الملك، المصدر السابق، س5، ص371 .

[116] - نفسه، س8، ص411 .

[117] - نفسه، س5، ص209 .

[118] - ابن الخطيب، الإحاطة، مج1، ص364 .

[119] - ابن عبد الملك، المصدر السابق، س5، ص288 .

[120] - ابن الخطيب، الإحاطة، مج1، ص374.

[121] - نفسه، مج3، ص160.

[122] - محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، ط1، دار ابن كثير، دمشق، 2002، ص750.

[123] - المراكشي، المصدر السابق، ج4، ص ص173، 175 .

[124] - ابن الزبير، المصدر السابق، ص153.

[125] - ابن الخطيب، الإحاطة، مج3، ص472.

[126] - ابن عبد الملك، المصدر السابق، س5، ص645، 646 .

[127] - ابن الزبير، المصدر السابق، ص210 .

[128] - ابن الخطيب، الإحاطة، مج3، ص472.

[129] - ابن الزبير، المصدر السابق، ص153 .

[130] - ابن الخطيب، الإحاطة، مج2، ص146 .

[131] - ابن الزبير، المصدر السابق، ص435 .

[132] - ابن عبد الملك، المصدر السابق، س6، ص369 .

[133] - ابن الخطيب، الإحاطة، مج1، ص483.